أيها الحفل الكريم،

يسعدني ويشرّفني أن أشارك اليوم في هذا اللقاء التكريمي، إلى جانب شخصيات أكنّ لها كل الإحترام والتقدير.
وبصراحة، لا أدري من أين أبدأ الحديث عن المحتفى به، الأستاذ رشيد درباس.

أأبدأ بنقيب المحامين السابق في طرابلس، ذلك المحامي الكبير الذي حظيت بفرصة التعاون معه في ملف بالغ الأهمية ؟

أم بالمراقب المتبصّر للحياة السياسية اللبنانية، الذي يواكب أحداثها، ويقدّم تحليلاته عبر الإذاعات والمحطّات ووسائل التواصل الإجتماعي؟

أم بالوزير السابق الذي ما زال يضطلع بدور بارز في مدينته طرابلس وفي الحياة الوطنية عموماً؟

أم بالأديب المتميّز، العاشق للّغة العربية، المعروف بغنى أسلوبه، ورفعة نثره وشعره؟

أم، أخيراً، بصاحب الروح المرحة، القادر على تحويل أعقد المواقف إلى لحظات من البهجة، وإضفاء البسمة على وجوه من يجالسه، وذلك على غرار ونستون تشرشل، المعروف بروحه الساخرة وفكاهته اللاذعة، الذي كان يقول: "إن النكتة أمر في غاية الجدية".

"A joke is a very serious thing"

إيماناً منه بأن الفكاهة ليست ترفاً، بل هي شكل من أشكال الحكمة.

إن الأستاذ رشيد درباس هو كل هؤلاء معاً، وأكثر من ذلك، إذا أضفنا الزوج والأب والجدّ والصديق الوفي....

فعلى الرغم من انشغالاته السياسية والمهنية والاجتماعية والعائلية، يجد وقتاً للتأمل في الذات، وكأنه اعتمد مقولة ديكارت الخالدة: " أنا أفكر، إذاً أنا موجود."

« Je pense donc je suis »

ولعلّ ديوانه الجديد «تمارين على بحر القلق» هو أبلغ تعبير عن هذه الروح المتأملة؛ فقصائده تجمع بين الشعر والفلسفة، وتمزج بين الإحساس المرهف وعمق التفكير ....

لقد أتيحت لي فرصة التعرّف عن قرب إلى هذا الرجل المتعدّد المواهب وذلك من خلال تجربتين:

- كانت الأولى في لقاءاتنا الأسبوعية، كل سبت، في وزارة العدل، تحت رعاية الوزير الراحل بهيج طبارة، حيث كّنا نعمل على تحديث القوانين اللبنانية واقتراح نصوص جديدة، مدركين المستوى المتردّي لبعض النواب الذين نصبوا أنفسهم مشرّعين وفقهاء...

  وكان الأستاذ رشيد درباس، في كل إجتماع، يبهرنا بسعة ثقافته القانونية وعمق بصيرته، ويضفي على جدّية النقاش مسحة من الدعابة وخفّة الظل.

– أما التجربة الثانية، فكانت مع إحدى قصائده التي ترجمتها إلى اللغة الفرنسية لنشرها في«L’Orient littéraire» ، الملحق الأدبي لجريدة «L’Orient–Le Jour»

وقد استغرقت مني هذه الترجمة وقتاً وجهداً، لأن أسلوب الشاعر يجمع بين الدقة والبلاغة. وكانت مفاجأتي كبيرة وسعيدة عندما علِمتُ أن إبنته رولا ألقت هذه القصيدة بصوتها العذب عبر إحدى الإذاعات. وقد تفاجأتُ أيضاً بأنّها صاحبة اللوحة التي تزيّن غلاف الديوان !

بعد هذه المقدمة حول شخصية المؤلف، لا بدّ لي من إبداء انطباعاتي عند قراءتي ديوانه العاشر الصادر حديثاً عن دار النهار للنشر.

تنتمي قصائد الأستاذ درباس إلى الشعر التأملي الوجداني، وتكشف عن شاعر يواجه الزمن والموت والذاكرة بقدر كبير من الحكمة والصفاء.
وتتوزّع هذه القصائد إلى مقاطع قصيرة تكثّف المعنى وتترك للقارئ مساحة للتأمّل، وهي مصقولة بلغة رصينة ذات نفس كلاسيكي، تجمع بين البساطة والعمق، وتتميّز بغزارة الصور البلاغية والتلوينات البيانية، كالإستعارة والتشخيص والتشبيه والمفارقة.

ففي قصيدة «النقش على الهواء»، نجد أن العنوان قائم على مفارقة؛ فالنقش يكون عادة على الحجر، أما النقش على الهواء فيوحي بعبثية محاولة الإنسان مقاومة النسيان.

يقول الشاعر: «لا تستخفوا بالثواني، فهي مجموع الحياة."

فيحوّل الزمن من مفهوم مجرّد إلى جوهر الوجود الإنساني. ثم يطرح سؤال الخلود: " السر في أن يحفظ التراب آثار خطاه ".

فالإنسان يفـنى، لكن أثـره قد يبقى.

وينتهي الشاعر بنداء أخلاقي:

"إن شئت أن تعاند الموت وما جنت يداه، فانقش على هوائك الذكرى على عكس هواه".

أي إن مقاومة الموت لا تكون بالقوة، بل بالأثر الطيب والذكرى الحسنة.

يقدّم الأستاذ درباس هنا رؤية ناضجة للوجود الإنساني؛ فالحياة عنده قصيدة غير مكتملة، والزمن هو مادتها، أما الخلود فلا يتحقّق إلا بما يتركه الإنسان من أثر في قلوب الآخرين. ومن هنا يصبح «النقش على الهواء» رمزاً لمحاولة الإنسان الانتصار على الفناء بالكلمة والذكرى والمحبة.

وفي قصيدة «لعاب»، يوظف الشاعر الطبيعة (الليل والفجر والشمس) بوصفها أجساداً حيّة ذات مشاعر وحركة، بلغة عاطفية تقترِب من الرمزية.

أما قصيدة «وصية»، فهي نصّ تأملي في الموت والحياة، يتقاطع فيه الوعي بالفناء مع تعلّق الشاعر بالإبداع . تبدأ القصيدة بمواجهة مباشرة مع الموت:

" رآني الموت مرات عديدة... وأنذرني" ،

أي إن الشاعر عاش عدّة تجارب قريبة من الفناء. لكنه في كل مرة كان يرفض الإستسلام فيقول: " فلم أفتح بريده."

أي لمأنه يتلقَّ رسالة الموت، أو لم يتقبّـلها.

ويستفيق الشاعر من غيبوبته متوقّعاً أن يجد خبر وفاته منشوراً، لكنه يكتشف أنه لا يزال حيّاً.

ويضيف :
" فأرجأت الذهاب بزعم أني لم أكمل بعد ... أبيات القصيدة ".
فنرى الشاعر يتحايل على الموت بحجة أن قصيدته لم تكتمل بعد؛ أي إن الكتابة والإبداع هما ما يمنحانه مبرّراً للبقاء، وكأن الفن وحده قادر على تأجيل الفناء، ولو مؤقّتاً .

وهي فكرة تذكّرنا بقول الكاتب ميشال بوتور:

«Chaque mot écrit est une victoire contre la mort.»

"كل كلمة تكتب هي انتصار على الموت".

أما قصيدة «غموض»، فهي تستحضر ثلاثة رموز فكرية وروحية كبرى في التراث العربي والإسلامي: أبن رشد (رمز العقل والفلسفة والشرح المنطقي)، وجلال الدين الرومي (رمز التصوّف)، والنفري (وهو أيضا من أعلام التصوّف) ، يجمع الشاعر بين العقل والحدس والإشراق كأعلى ما وصلت إليه الحكمة الإنسانية. لكن، رغم هذا الإرث الهائل من الفلسفة والحكمة والتصوف، يعترف بعجزه الشخصي فيقول : «ضاقت الرؤيا أمامي»، و " كل شيء لم يزل ملتبساً في نظري."

وهذه مفارقة مؤثّرة: أعظم العقول شرحت الوجود، لكن اليقين ما يزال بعيد المنال بالنسبة إلى الذات الفردية. إنها معالجة لموضوع الشك المعرفي في مواجهة إرث حضاري ضخم.

في هذه القصيدة يبني الشاعر قائمةً من الصور المتراكمة التي تعبر جميعها عن حالات وسيطة بين الوضوح والغموض، أو لحظات انتقالية بين الكمون والانفجار، وبين الصمت والصوت، وبين الظلام والضوء، فيوحي الشاعر بأن الحقيقة لا تكمن في اليقين الساكن بل تكمن في تلك اللحظات الغامضة والعابرة التي تسبق التجلّي الكامل.

وتتناول هذه القصيدة ثنائية العقل والغموض، واليقين والالتباس. ويبادر الشاعر إلى تعداد مظاهر الغموض في الطبيعة واللغة والفكر كأمثلة حسية على تلك الحالة الوجودية من اللايقين، قبل أن يعترف بعجزه أمام إرث الحكمة الكبرى.

أما قصيدة «أبناء الحواس»، فتستكشف الحواس الخمس، كلا منها في مقطع مستقل، مع ربطها بموضوعي الفناء والهوية، وكأن الشاعر يبني معجما شعريا حسيا كاملا عن هشاشة الوجود الإنساني.

وفي قصيدة «إخفاق»، يصوّر الشاعر الإخفاق باعتباره مرحلة طبيعية في حياة الإنسان، لا نهاية الطريق. فالطائر الذي يضلّ طريقه أو تعبث به الرياح لا يفقد قدرته على التحليق، وإنما يواصل المحاولة حتى يبلغ المهبط الآمن.

أما قصيدة «حبر عشيق ورق»، فتجعل الكتابة نفسها فعل عشق يتجسد في مادة الورق والحبر. فالقصيدة كلها تدور حول القلق الوجودي والخوف من الفناء، لكنها تعالجه عبر فعل الكتابة بوصفها ملاذاً ومصيراً في آن واحد.
ثم ينتقل الشاعر من الذات إلى الأجيال القادمة؛ فالقلق ليس شخصياً فحسب، بل يمتد إلى المستقبل، إلى مَنْ سيأتي بعده، ليواجه «جشع» أمواج الحياة ...

وماذا عن الحب؟
في قصيدة « كأنّ هوانا جدل»، تصبح «نعومة الخدّين منزلقاً للقبل». وفي قصيدة «رأيت بعينيك عمراً جميلاً»، يخاطب الشاعر رفيقة العمر بلغة رقيقة تمتزج فيها الذكريات بالحب ، فيسألها :

" توكّأتُ منذ الشباب عليكِ، فهلا توكّأتِ يوماً علي ؟"

ويضيف :

" أمِنْ رئتيك أشم الهواء، أم أني بنبض فؤادك حيّ ؟"

وهنا يبلغ التعبير العاطفي ذروته، إذ تصبح الحبيبة مصدر الحياة والتنفس، تماماً كما في هذه الأبيات لجلال الدين الرومي:
"أنتَ نفسي حين أتنفس، وأنتَ حياتي حيـن أحيا."

إلاّ أن هذه الوجدانيات لا تمنع الشاعر من التعبير عن رفضه للظلم وإعلاء الصوت في وجه المجازر التي يرتكبها العدو.

ففي قصيدة «الخبز معتقلٌ على مرأى اللعاب»، يستعين الأستاذ درباس بصور مؤثّرة وعبارات قاسية ليستنكر الحصار والجوع، وكيف أن العدو لا يكتفي بقتل الأحياء، بل يطارد الجنين حتى في رحم أمه، ويلجأ إلى الإبادة الاستباقية القائمة على الخوف من الديموغرافيا، فتغدو المخيّمات فضاء مفتوحاً لجمع الأشلاء لا للإيواء، وتتحوّل من ملجأ إلى مقبرة جماعية. كما يحيّي الشاعر «أطفال الحجارة» الذين صمدوا في وجه وحشية « قنابل العصر الهجين» قبل أن يصِف الحمامة تسقط «مضرّجة» بدمها، لأن السلام نفسه قد ذُبِح.

* * * * * * * * *

بطبيعة الحال، لا يمكننا هنا تحليل جميع قصائد هذا الديوان الذي يجمع بين التأمّل الوجودي، والوجدان الإنساني، والنزعة الأخلاقية، والذي خرج فيه الشاعر من حدود التجربة الشخصية إلى آفاق إنسانية أوسع، مستعيناً بالطبيعة لاختيار الرموز المعبرّة .

وتأتي المفردات منتقاة من المعجم العربي الفصيح، مع ميل إلى الألفاظ ذات الإيحاء العميق، بالإضافة إلى بعض المصطلحات القانونية، كعقار الكون، والارتفاق، والترقين، والوصية، أو " الدين الذي أثقلته الفائدة" . فنرى المحامي هنا يهيمن فجأةً على الشاعر ليذكّره بوجود تلازم وثيق بينهما.
وهذا ما يسمّى بالفرنسية : Déformation professionnelle !

وتكشف هذه القصائد عن شاعر يجمع بين الأصالة والحداثة؛ فهو تارةً يحافظ على البناء الكلاسيكي للقصيدة العربية، وطوراً يلجأ إلى الأبيات الحرّة ، لكنه يحمّل قصائده، في الحالتين، رؤى معاصرة تتناول الإنسان في ضعفه وقوته، وفي إخفاقه وأمله، وفي حبّه وتأمّله للموت والحياة.

وفي الختام، لا بدّ من التنويه بصدور هذا الديوان في هذا التوقيت بالذات؛ ليذكّرنا بضرورة الشعر في زمن الحرب، لأن الشعر نقيض الهمجية وتحدٍّ للموت.

صدَقَ الشاعر أندريه بروتون:

«L’étreinte poétique, comme l’étreinte de chair (…) défend toute échappée sur la misère du monde.»

"إن العناق الشعري، كالعناق الجسدي، (...) يحول دون أي إنفتاح على بؤس العالم."

فشكراً لك، أستاذ رشيد، على هذا الديوان القيّم الذي أنسانا بؤس هذا الزمن الرديء، وزودّنا بالذخيرة الروحية اللازمة لمواجهة العواصف ومقاربة المجهول ...

المحامي اسكندر روجيه نجار